

التحصينات الدفاعية وأثرها على الحياة الاجتماعية في تلمسان الزبانية

Defensive fortifications and their impact on social life in Tlemcen Ziyani

رشيدة سي الطيب¹ ، فضيلة حمزاوي²

¹ جامعة غليزان ، rachida.sitayeb@univ-relizane.dz

² جامعة ابي بكر بالقايد تلمسان ، f.s.hamzaoui@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/02/01؛ تاريخ القبول: 2025/04/25؛ تاريخ النشر: 2025/06/01

المخلص باللغة العربية:

شيد ملوك الدولة الزبانية استحکامات دفاعية قوية لمجابهة الأحداث التاريخية والغزوات المستمرة على عاصمة ملكهم تلمسان، حيث لا يزال البعض من معالمها شاهد على دورها الفعال في حماية وتنمية المدينة وحفظ عرض وأموال سكانها. وقد تنوعت هذه التحصينات وفق ما اقتضته الضرورة الأمنية لذلك، كالأسوار والأبراج والبوابات.

وبعد توفير الأمن والاستقرار انصرفت السلطة إلى الإصلاحات الاجتماعية والعناية بالمرافق العامة، كإنشاء المدارس والمساجد والزوايا والمستشفيات، وغيرها من العمائر التي عكست استقرار الأوضاع بالمدينة. فأدى الرخاء إلى جذب أهل الصنائع والعلوم من مناطق مختلفة وظهر التخصص في الأعمال والتفنن في الصناعات، كما ظهرت الأرباض خارج أسوار تلمسان كون المساحة الداخلية لم تعد تلبي حاجة الأفراد المتزايدة.

وعليه فإن التحصينات الدفاعية تعمل في بادئ الأمر على توفير الأمن والاستقرار ثم سرعان ما تظهر نتائج هذا الأمن بتحقيق الرفاهية التي تؤدي في المراحل اللاحقة إلى التمتع المفرط، وإهمال المبادئ والتخلي عن الفضائل، مما يحدث الضعف الذي يؤدي إلى الموت في الأمم.

الكلمات المفتاحية:

المجتمع الزباني؛ تلمسان؛ الأسوار؛ الأبراج؛ الأمن والاستقرار.

♦ سي الطيب رشيدة

Abstract: The Sultans of the Zian state built strong defensive fortifications to confront the historical events and the continuous invasions of Tlemcen, as its monuments still bear witness to its role in protecting and developing the city and preserving the supply and money of its residents. These fortifications varied according to the security necessity for that, such as walls, towers, and gates. After providing security and stability, the authority turned to social reforms and taking care of public utilities, such as establishing schools, mosques, corners, hospitals and other buildings that reflected the stability of the situation in the city. Prosperity attracted people of artifacts and sciences from different regions, specialization in business and artistry appeared in industries, and lands outside the walls of Tlemcen appeared as the internal space no longer met the increasing needs of individuals.

Accordingly, defensive fortifications work at first to provide security and stability, and then soon the results of this security will emerge by achieving prosperity that leads in later stages to excessive blessing, neglect of principles and abandonment of virtues, which leads to weakness that leads to death in nations.

Keywords: Zayani community; Tlemcen; Fences; Towers; Security and stability.

مقدمة:

يشكل الأمن قيمة أساسية في المدينة الإسلامية، ومن هذا المنطلق جاء اهتمام الملوك المسلمين بتوفيره عن طريق تحصينها، برفع أسوارها ونصب أبراجها، وإحكام أبوابها، وبناء الحصون والقلاع، وقد أقر الإسلام ضرورة حفظ دماء المسلمين، وحرمايتهم، وحثهم على إعداد القوة والدفاع عن ممتلكاتهم، ودينهم، وأراضيهم، لذا صنفها الفقهاء المسلمون في عداد البناء الواجب. (عثمان عبد الستار، 1999، ص135)

حرص الملوك الزيانيون على تأمين المدينة الزبانية فأحاطوها بأسوار شاهقة خاصة في الجهة الغربية حيث بنيت نحو ستة أسوار كاملة مرتفعة ومزدوجة تعلوها أبراج وتدعمها حصون، فالاستحكامات الدفاعية لها دور كبير في توفير الأمن، وإرساء استقرار المدينة

مما يتيح للسلطة الاهتمام باحتياجات الأفراد، والسعي إلى جعل تلمسان الحاضرة السياسية والثقافية الأبرز في بلاد المغرب.

واشكالية الموضوع تتمثل في ما مدى مساهمة التحصينات الدفاعية في ضمان أمن المجتمع الزياني وما أثر ذلك على الحياة الاجتماعية فيها؟

ولمعالجة هذه الإشكالية قمنا في بادئ الأمر بتوضيح دور التحصينات في إقرار الأمن والاستقرار مما أتاح الفرصة للملوك للاهتمام بمتطلبات السكان وجعل بذلك من تلمسان منطقة جاذبة للأفراد من مناطق مختلفة فتباينت الأصول وأدى ذلك لا محالة إلى مشاكل اجتماعية معقدة بانغماسهم في حياة اللهو والترف.

اما فيما يخص المنهج المتبع فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي وذلك من خلال استقراء الأحداث والمجريات التاريخية بالمنطقة، والتي رسمت ملامح الدولة الزيانية، أما عن **المنهج الوصفي** فكان اعتماده من خلال الدراسة الميدانية للمعالم الاثرية، وقد استعنا كذلك **بالمنهج التحليلي** حيث قمنا بتحليل العلاقة بين التحصينات الدفاعية خاصة الاسوار منها والجانب الاجتماعي للمدينة.

أولاً: التحصينات الدفاعية للمدينة الزيانية:

تتميز تلمسان بموقع استراتيجي حيث تقع المدينة على سفح جبل، ما بين أودية التافنة والصفصاف، وهي محمية جنوباً بهضبة لالاستي وتشرف شمالاً على سهول واسعة خضراء (محمد رباعة، 1999: 28) ومن ناحية الشمال الغربي نجد مرتفع ترارة وجبال فلاوسن وفي الشمال الشرقي مرتفعات سبعة شيوخ وتاسلة (ابن مريم التلمساني، 1986: 28) وكان يطلق على هذه الدولة في بداية عهدها باسم دولة بني عبد الواد، ثم لما تولى أمرها أبو حمو موسى الأخير وأحيها بعد اندثارها أطلق عليها اسم الدولة الزيانية (يحيى بوعزيز، 2007: 49) وكان يغمراسن بن زيان من أشد عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وأعرفهم بمصالح قومه، حيث أخضع لسلطته كل الذين خرجوا عن طاعة أخيه أمثال بني مطهر وبني راشد وغيرهم (لخضر عبدلي، 2008: 102) والذي تولى الحكم سنة 633هـ-1235م، وعرفت المدينة أزهى عصورها في عهده، وكان حاكماً لدولة واسعة عاصمتها تلمسان (أبي زكريا يحيى ابن خلدون، 2007: 204) وهذا ما فرض على ملوكها ضرورة تشييد تحصينات قوية، قادرة على حماية الرعية والممتلكات. ومن بين هذه التحصينات نذكر:

1- الأسوار:

1-1 الجانب التاريخي: تعود الأسوار الدفاعية للمدينة إلى فترات أقدم من الفترة الزبانية حيث قام المرابطون بتسوير أقاليم بسور من الأجر والحجارة، وكذلك الحال بالنسبة لتاكرات، وحين قامت الدولة الزبانية اهتم ملوكها بهذا الشأن خاصة في الجهة الغربية حيث بنيت نحو سبعة أسوار كاملة مرتفعة ومزدوجة تعلوها أبراج وتدعمها حصون، والسبب في ذلك أن هذه الجهة كانت مكشوفة لا تحميها الطبيعة (عبد العزيز فيلالي، 2002: 111-112). حيث أمر الملك يغمراسن سنة 668هـ/1269م ببناء أسوار شاهقة بالقرب من باب كشوط، والتي تطرق إليها بعض المؤرخين كالبركري في قوله: "إن مدينة تلمسان مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز". (أبي عبيد البركري، (ب، ت): 76) ومارمول كربخال في قوله "إن أسوار المدينة جميلة وشاهقة محصنة تحصينا جيدا ببروج ولها خمسة أبواب رئيسية" (مارمول كربخال، 1984: 299) كما أشار الباحثان جورج ووليام مارسي إلى "أن لمدينة تلمسان سبعة جدران وسبعة أسوار إلا أن سكانها لا ينامون نهارا ولا ليلا" (Marcais W et G: 113).

عمل أهل تلمسان بتحسين مدينتهم وتسويرها لحمايتها من كل خطر، وقد أجمع كل من شاهد هذه الأسوار على أنها كانت شامخة ومتينة البنيان، شيدت قاعدتها بالحجارة ثم رفع السور فوقها بالطابية تكسوه طبقة من الملاط القاسي، كما أنه أستعمل في بعض الأحيان الأجر المستطيل، وكانت هذه الأسوار قد زادت من مناعة المدينة؛ وما يؤكد هذا هو أن تلمسان المدينة الوحيدة في غرب المغرب الأوسط، صمدت ثماني سنوات أمام الحصار الطويل "لأبي يعقوب يوسف المريني"، ولم يتمكن "أبو الحسن المريني" من دخولها إلا بعد عناء كبير وحصار دام سنتين. (غزالي، 2020-2021: 299). يذكر Abbé Bargès أنه وبعد انتهاء حصار الثماني سنوات على المدينة كانت الأسوار والتحصينات في حالة كبيرة من الدمار فقام الملك أبو حمو بترميمها وتنظيف خنادقها وإمداد المدينة بمختلف المؤن (Abbé Bargès, 2011, p187).

نظرا للظروف الطبيعية والبشرية والتي أتت على هذه المعالم وخربت ملامحها الحقيقية حيث اخفت الكثير من أجزائها، فان تلمسان اليوم لا تحتفظ إلا بأجزاء قليلة من هذه الأسوار التي ستتطرق إليها في هذه الدراسة. وهذا ما أشار إليه أرشيف وزارة الدفاع الفرنسية حيث يضم رصيда غنيا من الوثائق التي تتعلق بالهندسة المعمارية لمدينة تلمسان وكيف حاول مسؤولي الهندسة العسكرية استغلال التحصينات القديمة وتوظيفها لتحسين مواقعهم وتغيير من ملامحها أو إضافة أجزاء من الأسوار لم تكن موجودة

وتحويل البعض من المعالم إلى أبراج لتقوية بعض النقاط الضعيفة منها) (l'image de Tlemcen dans les archives françaises, 2011, 53-54)



مخطط 1: حدود أسوار المدينة 1858

(service historique de la défense, archives du génie, feuille 1)

1-1- الوصف الاثري: من بقايا الأسوار نجد السور المحيط بالمقبرة المسيحية الممتد على الجهة الجنوبية والشرقية، أما الجهة الجنوبية فينقسم السور فيها إلى جزأين يفصل بينهما جدار منكسر مستحدث. الجزء الأول يقع على اليمين طوله حوالي 86م يتخلله جزء مستحدث أيضا بلغ طوله 6,25 م، وطول الجزء الموجود على اليسار 20,35م وهو متصل ببرج.

بالنسبة للجهة الشرقية فالسور يتوسطه برج من الجانب الأيمن ينطلق بشكل مستقيم من البرج بطول 4م، ثم ينحرف إلى الداخل بحوالي 0,75م ثم يميل بـ 10 أمتار، وينكسر على طول 17,72م إلى الأمام، أما الجانب الأيسر للبرج فانطلاقته من زاوية البرج على استقامة واحدة بطول 14,70م ثم ينكسر إلى الداخل بطول 2م، ويشكل زاوية قائمة، منها يبدأ الجزء المتبقي للسور بطول بلغ 69م.

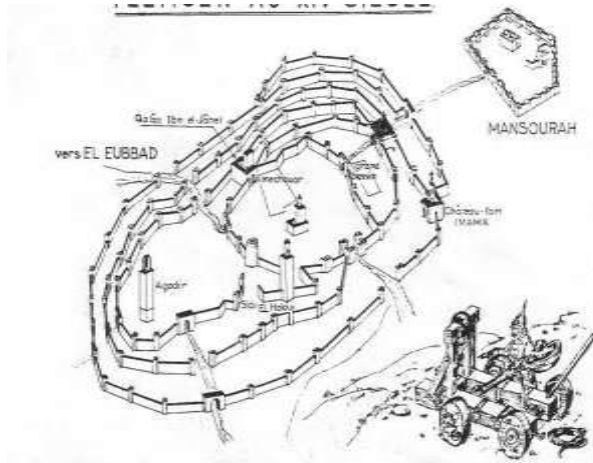


مخطط 2: يوضح بقايا سور تاقفارت باللون الاحمر بينما يحاذي السور الزباني الصهريج الكبير
اين بني السور الجديد سنة 1848

(service historique de la défense/archive du génie-dossier 3-feuille 3)

(l'image de Tlemcen dans les archives françaises, 2011:57)

كما نجد بقايا السور الواقع شرق أغادير بجانب باب الرواح طوله حوالي 3 أمتار، وبقايا سور آخر جنوب شرقي أغادير طوله 18م وهو متصل بأبراج وقد أشار الادريسي إليها فذكر "أن تلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة وهي مدينتان في واجدة يفصل بينهما سور" (ابي عبيد الله محمد الادريسي، 1989: 248)



شكل 01: أسوار وتحصينات مدينة تلمسان خلال القرن 14م

(عبد العزيز فيلاي، 2002: 629).

2- الأبراج:

1-2 الجانب التاريخي: ظهرت هذه العماائر في وقت مبكر كعنصر هام في التحصينات الدفاعية لها لها من دور في المراقبة والإنذار والرمي من جزئها العلوي وما تقدمه من دعم للأسوار في جزئها السفلي، ومن خلال الأبراج المتبقية في تلمسان يظهر أنها مربعة الشكل تقريبا (عبد العزيز لعرج 2006: 230). نذكر منها:

2-2 الوصف الأثري: الأبراج المحيطة بالمقبرة المسيحية حيث بلغ طول البرجين حوالي 7م، وقد بلغ بروز برج الجهة الشرقية عن الجدار 5,95م من كلتا الجهتين.



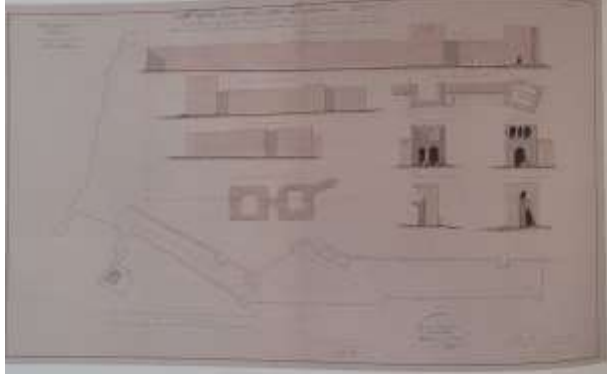
صورة 02: سور وبرج الجهة الشرقية.

صورة 01: برج الجهة الجنوبية

تصوير الباحثة: سي الطيب رشيدة

الأبراج الموجودة بمنطقة أغادير: حيث يقع البرج الأول بالقرب من سيدي الداودي على مسافة قريبة من هذا البرج نجد البرج الثاني أسفل باب العقبة، وهما يطلان على الجهة الشمالية الشرقية، يبلغ طول ضلع البرج الأخير 7,20م وبروزه من الناحية الغربية 5,25م ومن الناحية الشرقية 5,85م، وفي نفس مسار البرج السابق من الناحية الجنوبية يوجد مجموعة من الأبراج بلغ عددها أربعة، حيث يتميز البرج الأول بممر يعلوه سقف مقبب في نهايته باب مقوسة، وعلى مسافة تقدر بـ 53م يوجد برج آخر تطل واجهته

على الناحية الشرقية في اتجاه وادي مشكانة ، ويبلغ طول ضلعه 7,15م وبروزه عن الجدار بلغ 7 أمتار ، أما عن البرج الثالث فيبعد عن البرج الأخير بمسافة تقدر بـ32م به تصدعات كبيرة جدا تسببت بها انهيارات الجهة الخلفية من هذا البرج ، وصولا إلى البرج الأخير الذي يبعد عن البرج السابق بـ25م.



مخطط:3 يوضح الأبراج التي كانت تدعم السور القديم المزدوج للجزء الشمالي الغربي للمدينة

(l'image de Tlemcen dans les archives françaises,2011:70)

أما بالنسبة للأسماء فقد ذكر عبد العزيز فيلالي برج قشاقش المتواجد على ضفة وادي مشكانة وأنشئت له طريق مغطاة بالأقواس تربط البرج بالمدينة ، و برج الطاحونة الذي يقع في جنوب المدينة لمراقبة هذه الجهة وحمايتها لأن الطاحونة الموجودة بهذه المنطقة مثلت مصدر رئيسي لتزويد المدينة بالدقيق ، ووجد برج آخر في الشمال الغربي للمدينة سمي ببرج إمامة إضافة إلى برج في سفح جبل شقراطين(عبد العزيز فيلالي، 2002:111).

3-قلعة ابن الجاهل:

الجانب التاريخي: هي حصن هام أنشأه الزيانيون في الجهة الجنوبية ، وشكلت هذه القلعة سدا منيعا في وجه الأخطار الخارجية من الناحية الشرقية والجنوبية. (عبد العزيز فيلالي، 2002:112).

3-1-الوصف الاثري: بقايا هذه القلعة عبارة عن أجزاء متناثرة يفصل بينها البنايات الحديثة التي غيرت من تخطيطها وهي اليوم عبارة عن جزأين ، أما الأول فيشكل حرف z ، يقابله سور يبلغ طوله 14,35م ، وتتراوح سمك الجدران الثلاثة ما بين

0,85 م إلى 1,45 م، وبلغ أعلى ارتفاع بها 3,45 م، والجزء الثاني فهو على شكل حرف u بلغ طول الجدارين المتوازيان 11,77 م و 12,20 م، أما قياس الجدار الرابط فطوله 9 م وسمكه 1,15 م.



صورة 03: قلعة ابن الجاهل الجزء الاول صورة 04: قلعة ابن الجاهل الجزء الثاني

تصوير الباحثة: سي الطيب رشيدة

4- الأبواب:

فتحت في أسوار مدينة تلمسان عدة أبواب كان من الصعب جدا ضبط أسمائها وموقعها، ويذكر البكري: "إن مدينة تلمسان مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز ولها خمسة أبواب، باب حمام وباب وهب وباب خوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرّة" (أبي عبيد البكري، (ب، ت): 76) وهو نفس العدد الذي ذكره ابن خلدون إلا أنها اختلفت في التسمية: "ولها خمسة أبواب باب الجياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوي، وباب القرمادين وغربا باب كشوط"، إلا أن هذه الأبواب تمثل فقط الأبواب الرئيسية للمدينة، لأن ابن خلدون ذكر في مواضع أخرى من الكتاب أسماء لم يذكرها حين وصف المدينة، ونستدل على ذلك بباب إيمين تجمع وباب الحديد، أبي قرّة، المعلى، وباب وهب. (يحيى ابن خلدون، 2007: 90-91). بالإضافة إلى أبواب أخرى ظهرت بعده كباب درب السمار، البرادعي، سور الحمام، تازة، الزويا، الربط، سيدي أبي جمعة، الرواح، الحديد، الجفيلة، وباب السكة.



شكل 2: أبواب مدينة تلمسان (دحماني صبرينة، 2015: 21)

وبعض أبواب المدينة يكتنفها الغموض، لعل ذلك راجع لتغيير أماكن بعضها نتيجة التوسع العمراني للمدينة، حيث تذكر المصادر أن تأسيس تآكرآرت أفقد بعض الأبواب أهميتها، ولم تعد تسمى أبوابا كباب الحمام وباب الخوخة وباب أبي قرة، وبالرغم من تغيير أماكن الأبواب وأسماؤها عبر العصور لسبب ما إلا أن الذاكرة الجماعية احتفظت بالأسماء القديمة، وعلى سبيل المثال كان يغمراسن قد شيد باب كشوط وبنفس المنطقة شيد من بعده أبو تاشفين الأول بابا آخر عرف بباب سيدي أبي جمعة، وفي العهد العثماني كانت تعلق عليه رؤوس الخارجين عن الطاعة فسمي باب الجفيلة وذلك لتأرجح هذه الرؤوس بالباب، أما السلطات الفرنسية وحين إعادة بناء السور المحيط بالمدينة فتحت بمقربة من المكان وبنفس الاتجاه باب آخر سمي بباب فاس، وفي الواقع تعبر كل هذه الأسماء عن المنفذ الوحيد الموجود بالسور الغربي (سيدي محمد نقادي، براهيمي نصر الدين، 2007: 16-17)، وهذه الظروف أحدثت إشكالا كبيرا في الضبط الدقيق للأبواب وتسمياتها ومواقعها.

يتوجب علينا أيضا في هذه الدراسة الإشارة إلى مواد وتقنية البناء التي استخدمت في هذه التحصينات، ذلك أن مواد البناء تساهم في تتبع مواردها بالمنطقة وأسباب وطرق اختيارها. وقد استخدمت الطابية كمادة بناء رئيسية بسبب قرب جبال فلاوسن، بالإضافة إلى مادتي الأجر والحجارة.

الطايبية: اشتد الإقبال عليها كمادة إنشائية خاصة في البناءات العسكرية كالأسوار والأبراج، وهذا بسبب خصائصها الطبيعية وفعاليتها الدفاعية فهي أشد من الحجر، كما أنها تمتاز بتحملها لمختلف الضغوط ومقاومتها للعوامل المناخية، وهذه المميزات شجعت البنائين في تلمسان على الإقبال الكبير على هذه المادة، حيث وصل ارتفاع الأسوار إلى إحدى عشر أو اثنتا عشر طابية، أما الأبراج فبلغت سبع عشر طابية، ولكي تستخدم الطينة بطريقة الطابية يجب أن تكون مركباتها كالتالي: الحصى ← 0 إلى 15%، الرمل ← 40 إلى 50%، غرين ← 20 إلى 35%، الطين ← 15 إلى 25%

ونجد من المؤرخين الذين تناولوا مادة الطابية بالدراسة ابن خلدون حيث ذكر: "ومنها البناء بالتراب خاصة ليتخذ لها لوحان من الخشب... فينصبان على أساس... ثم يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس... ثم يعاد نصب اللوحين على صورته ويركز كذلك إلى أن يتم وينظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة ويسمى بالطابية وصانعه الطواب" (عبد الرحمن ابن خلدون، 1993: 303)، ونجد نص الباحث جورج مارسى قد تحدث عن استخدام هذه التقنية في قوله: "وهذا السور المصنوع من طين ورمل وجير مدقوقة بين لوحتين". (جورج مارسى، 2004: 57) أنظر الصورة رقم 01، 02

الآجر: يعتبر الآجر من أقدم وأكثر مواد البناء استعمالا، وذلك بسبب قدرتها على التصلب بعد عملية الحرق لتصبح حجرا صلبا، ويظهر من خلال الدراسة الميدانية أنه إلى جانب الطابية استعملت كذلك مادة الآجر في الأسوار، كسور باب الرواح، حيث وضعت القطع بالشكل الطولي، ووضعت بالشكل العرضي في معالم قلعة ابن الجاهل.

بعد التعريف بالتحصينات التي شكلت الحاجز الأمني لمدينة تلمسان وجب الإشارة إلى الدور الذي لعبته، وكذا تأثيرها على الحياة الاجتماعية عامة.

ثانيا: أثر التحصينات الدفاعية على الوضع الاجتماعي في العصر الزياني:

إن استقرار الأوضاع الأمنية، السياسية والاقتصادية بالمدينة شكل دافعا قويا لانصراف السلطة إلى الإصلاحات الاجتماعية، والعناية بالمرافق العامة بغرض تحقيق الرفاهية الاجتماعية، وكذا إنشاء مجتمع موحد وقوي قادر على التصدي لمختلف الأخطار خاصة الخطر المتعلق بالدولتين المرينية والحفصية و نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1-الخدمات الثقافية:

كان لملوك بني زيان رعاية مستمرة للعلم والآداب، فكانت السلطة تشجع على تنشيط الحركة الفكرية، حتى صارت تلمسان من أكبر المراكز التي تستقطب الطلاب وأهل العلم، لأنها كانت تفسح لهم مجال العمل ونشر العلم، ولتدعيم هذا الجانب تم تشييد المدارس والمكتبات والمساجد والزوايا، فكانت تلمسان في عهد أبي حمو الثاني بفضل مدارسها الخمسة، ومسجدها الأعظم، مركزا ثقافيا هاما، وبلد إشعاع علمي، يضاهي أهم مراكز المغرب الثقافية، (شارل أندري جوليان، 1983: 208)، وكان الهدف منها نشر التعليم والثقافة، وكذا توجيه الرعاية لخدمة مصلحة المذهب والدولة، وبعث السكينة والهدوء والأمن، ونجد من بين أهم المدارس المدرسة التاشفينية والمدرسة اليعقوبية.

2- الخدمات الصحية:

طبيعة هذه الخدمات كان لها أثر كبير على المدينة من حيث ازدهارها وتطورها، فالمستوى الصحي للسكان، يؤثر تأثيرا واضحا على قدراتهم الإنتاجية، وهذا ما أدركه الملوك الزيانيون الذين أقاموا المستشفيات أو البيمارستانات وكان الاهتمام واضحا بهذه المؤسسات خاصة بسبب ما عاشته المدينة في فترات الحرب والحصار، والأوبئة والمجاعات، أهمها المستشفى الموجود شرق المشور. كما كان الاهتمام واضحا بفئة العجزة والمعوقين حيث خصصت لهم أماكن لخدمتهم، منها دار سيدي أحمد أبي الحسن (سيدي محمد نقادي، 1991: 39-40)

أما عن الحمامات فقد كان لها دور اجتماعي بالغ الأهمية، وقد تضمنت أحياء المدينة العديد من الحمامات الأنيقة، ولم تكن الحمامات للاغتسال والعلاج فقط، بل كانت تخصص كذلك للنوم ليلا، حيث كان يقصدها الغرباء عن المدينة، ومن بين الحمامات المشهورة بالمدينة، نجد حمام العالية الذي يقع بالقرب من باب الحديد (عبد العزيز فيلال، 2002: 140).

ومن بين الخدمات الصحية كذلك نجد شبكة المياه حيث اهتم الحكام ببناء شبكة محكمة للقنوات داخل المدينة وخارجها، حيث تميزت تلمسان بموقعها الجغرافي الجيد، والغني بالثروة المائية، حيث تتموضع تلمسان على ثلاث طبقات رئيسية تتمثل في طبقة مكونة من صخور الكلس وأخرى مكونة من الصلصال، والطبقة الثالثة مكونة من الطين، وهذا التركيب بهذه الطبقات يعطيها القدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار والثلوج في أحواض شاسعة في باطن الأرض، لذلك فهي بمثابة خزان طبيعي كبير تتوزع منه المياه بواسطة عدة ينابيع (محمد بن رمضان شاوش، 1995: 31) ونستشهد هنا بقول ابن السعيد: "والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس، لمياهها، وبساتينها، وكثرة

صنائعها" (المغربي ابن سعيد، (ب.ت: 143). وأشار ابن الحوقل لذلك أيضا بقوله: "مدينة تلمسان لها أنهار جارية وأرحية عليها وفواكه وزرعها سقي، وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة". (إسماعيل العربي، 1984: 136)، وتميز المدينة بهذه الثروة جعلها تسمى في العهد البربري بكيس الماء (Benkalfat Djelloul: 20, 20) وكانت القنوات خارج المدينة مغطاة تحت الأرض، حيث حرص الملوك على إخفائها والحفاظ على سرية مكانها، حتى لا يتفطن لها الغزاة، ومن الأسباب الرئيسية التي جعلت أهل تلمسان يستسلمون لحصار السلطان أبي الحسن المريني سنة 737هـ/1337م، بعد صمود ومقاومة شديدة دامت أكثر من ثلاثين شهرا، هو اكتشافه لمصدر المياه، فقطعه وحوله إلى جهة أخرى فسقطت المدينة في يده (عبد العزيز فيلالي، 2002: 149-150)، وذلك رغم بقاء أسوارها صامدة في وجهه.

3- الخدمات الترفيهية:

تضمنت تلمسان عدة منتزهات، ومرافق للتسلية، والتي تقع خارج الأسوار والتي كان لها شأن عظيم من حيث الهندسة والوظيفة، (مختار حساني، 2007: 145)، كالصهريج الأعظم الذي عرف بصهريج مبدى وهو يقع بمحاذاة السور الغربي للمدينة، وبالقرب من باب سيدي أبي جمعة أي باب كشوط، ويعتبر أكبر مسطح مائي شيدته دولة بني عبد الواد، والذي أمر ببنائه الملك أبو تاشفين الأول، يساوي طوله مائتي متر ضعف عرضه، وعمقه ستة أذرع أي ثلاثة متر تقريبا، وكانت جدرانها من الطابية. بالإضافة إلى هذا الصهريج نجد المنيات والتي كانت تقام فيها الحفلات الضخمة، وهي اثنتان واحدة بالقرب من باب القرمادين، عرفت باسم قصر بنت السلطان والثانية كانت خارج باب العقبة على مقربة من وادي الصفصيف، والمنية هي دار فخمة محاطة بالجنان توجد خارج الأسوار، وهي المكان الذي يتمنى المرء العيش فيه لذا سميت بالمنية.

وبالنسبة للاستعراضات العسكرية وسباق الخيول فكانت تقام في الملعب الموجود بالجهة الجنوبية بالقرب من قلعة ابن الجاهل، وهو مكان للفرجة للعامة والخاصة، (سيدي محمد نقادي، 1991: 170). حيث يلعب فيه الفرسان، وتقع فيه المبارزة الميدانية، كما يستقبل فيه السلطان السفراء والوفود، (عبد العزيز فيلالي، 2002: 153).

وتوفير هذه الخدمات يتوازى وظروف خاصة يعمها الأمن والاستقرار نتيجة قدرة التحصينات على التصدي للأطماع الخارجية، لتجد هذه الخدمات مكانا لها في مجتمع يأبى الظلم، والتشتت ويطمح في الارتقاء والتطور، وبالتالي تحقيق الغايات المنشودة من ورائها كزيادة الكثافة السكانية واتساع رقعة الدولة.

ثالثا: المجتمع الزباني من التجانس إلى التباين وتأثير ذلك على المحيط العمراني للمدينة:

عرفت الدولة الزبانية بسبب الأوضاع الأمنية الجيدة كثافة سكانية كبيرة، كما أدت الخدمات الاجتماعية دور القوة الجاذبة لشعوب المناطق الأخرى، وبالتالي زيادة معدل الهجرة بسبب الظروف التي شكلت فرص أفضل للحياة، سواء من الناحية الاقتصادية التي تتمثل في وجود فرص عمل أفضل ودخل أعلى، أو من الناحية الاجتماعية والثقافية، والتي سبق ذكرها.

فأقبل الناس على العمل فنمت الثروة وارتفع مستوى العيش وازدهرت الحضارة، حيث كثر ترف السكان، وزاد عددهم وتعددت مظاهر الرقي، ونشطت حركة العمران، حتى بلغ عدد دور تلمسان في عهد أبي تاشفين الأول ستة عشر ألف دار، وهذه البنية حولت المجتمع الزباني من مجتمع بسيط ضيق النطاق في بادئ الأمر، إلى مجتمع ذي كثافة سكانية كبيرة، حتى وصل إلى درجة التعقيد في تركيبته، إذ كان يضم أخلاطا بشرية وأجناسا متعددة حيث ضم أعدادا كبيرة من اليهود الذين كانوا يسكنون داخل حي مغلق بعيدا عن المسلمين، والذي يقع خارج الأسوار، ثم سمح لهم بأن ينتقلوا إلى داخل المدينة حيث أسكنوهم بجوار المشور، فاستقروا في شماله وشرقه، وكان لهم هيمنة كبيرة على التجارة والأعمال المالية، ومساهمة فعالة في الدورة الاقتصادية، والحركة الصناعية، وهذا ما ضايق المسلمين، كما وجدت كذلك فئات كبيرة من المسيحيين بالمنطقة من جند وتجار وأسرى، إلا أنهم لم يكن لهم تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية مقارنة مع اليهود. (عبد العزيز فيلالي، 2002: 194-195)

وعليه فإن تغير البناء الاجتماعي للمدينة الزبانية جعلها تجمع بين أسوارها فئات متباينة من الناس، ومع التزايد المستمر لأعداد المهاجرين اكتظمت المدينة بعدد كبير من الصناع وأصحاب الحرف، للنهوض بمتطلبات المجتمع، وإضافة إلى هذه الفئة المنتجة، نجد فئة أخرى غير منتجة من الجائلين والماكرين والفقراء والمعدومين الذين اتجهوا إلى السرقة والعدوان على النفوس والممتلكات، وهذا ما أدى في كثير من الأحيان إلى الاضطرابات والفوضى وعدم الاستقرار.

فالحياة الاجتماعية تسير في الارتقاء والتطور بفعل التحول السابق الذكر، من حالة التجانس إلى مرحلة التباين والتخصص، والمدينة الزبانية لم تخرج عن هذه القاعدة حيث ساهمت الكثافة السكانية الكبيرة في ظهور الأرباض خارج أسوارها، وهذا بسبب

محدودية مساحتها، والتي حددتها الأسوار، وهذا ما أثر على تخطيطها، وتميز نمط استخدام الأرض في هذه المناطق بتراكمات متزايدة، وغير متناسقة، إلى جانب المساحات الكبيرة من الأرض التي لم تستغل بعد، ويفتقد مجتمع الأطراف إلى الخدمات الاجتماعية المختلفة كالشوارع الممهدة مثلا، كما يتميز بالطابع الانتقالي، ويقصد به عمليات الضم والإدماج، كما يضم مجتمع الأطراف أنماطا متنوعة من السكان، يمثلون مزيجا مختلطا من حيث طبيعة النشاط والمهنة، نذكر منها الصناعات المزعجة بالرائحة أو بالصوت أو بالدخان كصناعة الأجر والفخار ودور الدباغة بالجهة الشرقية، وصناعة النحاس والحديد في الجهة الجنوبية الغربية، كما تجمع هذه المناطق بين الطابع الريفي والحضري معا، حيث تشمل مزيجا من السكان بعضهم يعمل بالزراعة، وبعضهم يزاول نشاطات حضرية، وهو مجتمع لا ينشأ أو يقوم دفعة واحدة بل هو في تغير مستمر خارج الأسوار، له علاقة بالازدحام السكاني في المناطق الداخلية للمدينة.

وما يلاحظ على مدينة تلمسان أنه بقدر ما يتزايد عدد السكان ويشد تركيزهم فإن مراكز المدينة تتكيف مع البنية الجديدة، فيتم زيادة المرافق من مساجد، وبيمارستانات، وحمامات وأسواق، إلا أن محدودية المساحة ستدفع إلى إحداث تراتب مادي لبعض التكوينات المعمارية كالمنازل، ممثلة في بناء العناصر والوحدات المعمارية المشتركة التي تخدم أكثر من منزل أو وحدة معمارية، كالبئر والفناء والجدار المشترك، وهذا نظرا لمحدودية المساحة الداخلية والتي حددتها الأسوار.

رابعا: التأثير السلبي للتحصينات الدفاعية على الحياة الاجتماعية للمدينة:

كما سبق الذكر فان توفر الأمن والاستقرار يشجع على الهجرة والنزوح، ما يترتب عنها مشكلات اجتماعية معقدة كظهور مشكلة البطالة، وخفض الأجور والدخل وارتفاع تكاليف المعيشة، كما يؤدي التزاحم السكاني في المدن إلى انتشار الأمراض، وماله كذلك من تأثير كبير في المشكلات الاخلاقية، وهذا ما هو إلا انعكاس لبلوغ الحضارة أعلى درجاتها، إلا أنه أخطر ما تتجه إليه الرفاهية هو الكشف عن الرغبات، والملذات والذهاب بها إلى أقصى درجاتها، فيتجه السكان إلى العمل والتفنن في الصناعات والعلوم، والتنعيم المفرط وإهمال المبادئ، مما يحدث الضعف الذي يؤدي إلى الموت في الأمم (إدريس خضير، 2003: 161)

وعليه فان الدول في نشأتها تكون محاطة بالأعداء يلزمها التغلب عليهم لكي تتمكن في الأرض، فيبعثها ذلك على أن تتخذ همتها، حتى تصمد في الصراعات والحروب مع

جيرانها، ثم تتمكن من إخضاعهم أو القضاء عليهم، ثم تمر بعد ذلك فترة يكون الناس فيها أقوياء، لكنهم متربصون يقظون لئلا يقوم الأعداء مرة أخرى، وتلك هي أقوى الفترات التي تمر بها الدولة، وبأنشطتها، ثم يطمئن الناس بأن قوتهم أصبحت لا تغلب، فيبدأ الترف يدب في أوصالها وهو الحمض الأكال الذي يأكل الأمم والشعوب، لأنه مفسد متلف، باعث على القعود صارف عن بذل الجهد، وعندئذ يكون الهلاك. (محمد قطب، 1998: 101)

الخاتمة:

إن اعتبار العاصمة الزبانية بوابة المغرب الاسلامي كان له تأثير كبير على مسار الظروف السياسية، والاجتماعية، وحتى الاقتصادية بها، وهذا ما فرض على ملوكها ضرورة اللجوء إلى استخدام كافة الوسائل التي تضمن الاستقرار، وتثبيت كيان الدولة، من تشييد للأسوار والقلاع والأبراج والحصون، وغيرها من العماثر الدفاعية والتي تباينت تأثيراتها بين تأثيرات ايجابية واخرى سلبية والتي تمثلت في:

- 1-التأثيرات الايجابية: ان توفر الامن والاستقرار بالمنطقة سمح للملوك الزبانيين الى الاهتمام بتوفير الخدمات الاجتماعية والثقافية وحتى الخدمات الترفيهية، والتي عملت على جذب الأفراد من مناطق مختلفة، مما ساهم في:
 - توزيع العمل بشكل واسع.
 - القيام بالمهام الكبرى والتغلب على المجتمعات الأخرى وإدخالها في حوزتها، مما يزيد في اتساع الدولة وطول أمدھا.
 - تحقيق أهداف الدولة.
 - تحول المجتمع من مجتمع بسيط إلى مجتمع مركب وظهور التخصص في الأعمال والتفنن في الصناعات، والعلوم.
- 2- التأثيرات السلبية: نذكر منها على سبيل المثال:
 - ارتفاع عدد السكان بسبب الاعداد الكبيرة للمهاجرين الى المنطقة وظهور مشكل البطالة.
 - خفض الأجور والدخل وارتفاع تكاليف المعيشة.
 - عدم تناسب حجم السكان مع المرافق العامة وظهور مجتمع الأرباض خارج أسوار المدينة.
 - انتشار الأمراض والظواهر غير اخلاقية.

- التفتن في الصناعات والعلوم والتنعم المفرط وإهمال المبادئ والفضائل.
 - الاعتماد الكلي في الدفاع عن المدينة على التحصينات الدفاعية، ما يمكن شعبها من الترف في المراحل اللاحقة، وهو المعلن بخراب الأمم كما سبق بيانه.
- المراجع:**
- ابن خلدون، عبد الرحمن، (1993). مقدمة ابن خلدون، ط1. لبنان: دار الكتب العلمية.
 - أبي العباس، احمد بن محمد ابن أبي الربيع الحكيم، (1289)، كتاب السلوك المالك في تدبير الممالك، محقق عن مخطوطة باريس 448هـ ونشر بالقاهرة.
 - أبي زكريا، يحيى ابن خلدون، (2007). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع.
 - إدريس، خضير، (2003). التفكير الاجتماعي الخلدوني وأثره في علم الاجتماع الحديث، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
 - البكري، أبي عبيد، (ب س). المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، القاهرة: الناشر دار الكتاب الإسلامي.
 - بوعزيز، يحيى، (2007). تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، الجزائر: سحب الطباعة الشعبية للجيش.
 - التلمساني، ابن مريم، (1986). البستان في ذاكرة الأولياء والعلماء في تلمسان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
 - حساني، مختار، (2007). تاريخ الدولة الزبانية الأحوال الاجتماعية، ط1، ج3، الجزائر: دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع.
 - دحماني صبرينة، (2015). جرد المعالم التاريخية والمواقع الاثرية لمدينة تلمسان-دراسة تمهيدية لوضع الخريطة الاثرية، رسالة دكتوراه غير منشورة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم، تخصص علم الآثار والمحيط، جامعة ابي بكر بالقائد تلمسان، الجزائر.
 - رباعة، محمد، (1999)، «تلمسان جوهره المغرب العربي»، القبس، وكالة القبس للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، العدد 2، ص 23-39.
 - سيدي، محمد نقادي، (1991). التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير قسم الثقافة الشعبية تخصص فنون، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر.
 - شارل، أندري جوليان، (1983). تاريخ إفريقيا الشمالية «تونس- الجزائر- المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830»، ت محمد مزالي البشير بن سلامة، ط2، ج2، تونس: الدار التونسية للنشر.

- شوش، محمد بن رمضان، (1995). باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبدلي، لخضر، (2008). التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- غزالي عبد العالي، (2020-2021) المجتمع التلمساني الزباني —دراسة للعادات والتقاليد والأعراف—من القرن 7هـ.13م حتى القرن 10هـ.16م، أطروحة دكتوراه تخصص تاريخ العصر الوسيط المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان.
- فيلاي، عبد العزيز، (2002). تلمسان في العهد الزباني -دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية"، ج1، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
- قطب، محمد، (1998)، حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ط1، القاهرة: دار الشروق.
- مارسى، جورج، (2004). مدن الفن الشهيرة تلمسان، تر سعيد دحماني، الجزائر: دار النشر التل.
- مارمول كربخال، (1984). إفريقيا، تر محمد حجي وآخرون، ج2. الرباط: دار المعرفة للنشر والتوزيع.
- المغربي، ابن سعيد (ب.س)، المغرب في حلي المغرب، تح شوقي ضيف، ط4، ج2. القاهرة: دار المعارف.
- L'Abbé Jean-Joseph-Léandre Bargès, (2011), **Tlemcen ancienne capitale du Royaume de ce nom**, sa topographie, son histoire, description de ces principaux monuments, anecdotes, légendes et récits divers, Alger: présentation et révision de Mahrez Amine, EURL Kafila.
- Benkalfat Djelloul. (2002) **Il était une fois Tlemcen récit d'une vie récit d'une ville**, Tlemcen :Edition Ibn Khaldoun.
- Marçais W et G, **Les Monuments Arabes de Tlemcen**, Paris : ancienne librairie thornine et fils.
- **L'image de Tlemcen dans les archives françaises**, (2011), catalogue de l'exposition Tlemcen-2011, sous l'égide de l'ambassade de France en Algérie.